مجلة كلية
# الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة
العدد الرابع
1987

- بين داعٍ ومبشّر
- نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام
- الألمان والقرآن
- بعض علماء النفس يعودون إلى رشدهم
- نصوص أجنبية مترجمة

الأستاذ الصديق بشير نصر

**الاتصال عند الفلاسفة :**

يتخيّل الفارابي نظاماً فلكياً أساسه أن في كل سماء قوة روحية أو عقلاً مفارقاً يشرف على حركتها ومختلف شؤونها ، وآخر هذه القوى ، وهو العقل العاشر ، موكل بالسماء الدنيا والعالم الأرضي ، فهو نقطة اتصال بين العالمين العلوي والسفلي ، وكلما اتسعت معلومات المرء اقترب من العالم العلوي ودنت روحه من مستوى العقول المفارقة ، فإذا وصل إلى درجة العقل المستفاد أصبح أهلاً لتقبل الأنوار الإلهية وأضحى على اتصال مباشر بالعقل العاشر . وهذا الاتصال هو سبب السعادة الإنسانية . وهو غير الاتحاد عند المتصوفة . اذ الاتصال عند الفارابي مثلاً هو مجرد سمو إلى العالم العلوي وارتباط بين الإنسان والعقل الفعّال دون أن يمتزج أحدهما بالآخر أما المتصوفة فيقولون بحلول اللاهوت في الناسوت فلا يتميز الخلق من الخالق ويصير الجميع واحداً[1] .

وفكرة الاتصال بالعقل الفعال بواسطة العلم والمعرفة انتقلت إلى كثير من الفلاسفة المسلمين امثال : ابن سينا في ( الإشارات ) وابن باجة صاحب كتاب ( تدبير المتوحد ) الذي شرح فيه فكرة الاتصال هذه وابن طفيل في ( حي بن يقظان ) ، وهذا الأخير ذهب إلى أن الإنسان قادر على إدراك الحقائق الكونية

(1) مدكور ، بيومي : في الفلسفة الإسلامية ، 1/40-45الطبعة 3 دار المعارف بمصر 1976 .

والتدرج منها إلى حقيقة الحقائق التي افاضت عليه النور والمعرفة ، ووسيلة ذلك النظر والتأمل[2] ، وهذا عين نظرية السعادة أو الاتصال عند الفارابي وإن جاءت في قالب أدبي وصياغة فلسفية : وإلى النظرية عينها ذهب ابن رشد ، في ( تلخيص كتاب النفس )[3] .

**الاتصال عند المتصوفة :**

يقول صاحب ( التعرّف لمذهب أهل التصوف ) : معنى الاتصال : أن ينفصل بسرّه عما سوى الله ، فلا يرى بسره ـ بمعنى التعظيم ـ غيَره ، ولا يسمع إلاّ منه »[4] ، وقال النوري : « الاتصال مكاشفات القلوب »[5]وقال بعضهم : « الاتصال وصول السرّ إلى مقام الذهول »[6] وقال آخرون : « الاتصال : أن لا يشهد العبد غيرَ خالقه ، ولا يتصل بسرّه خاطرٌ لغير صانعه »[7] .

ومراد القوم بالاتصال والوصول : اتصال العبد بربه ووصوله إليه ، لا بمعنى اتصال ذات العبد بذات الربّ كما تتصل الذاتان إحداهما بالأخرى ، ولا بمعنى انضمام إحدى الذاتين إلى الأخرى والتصاقها بها ، وانما مرادهم بالاتصال : إزالة النفس والخَلْق من طريق السير إلى الله ، ولا تتوهم سوى ذلك ، فإنه عين المحال[8] .

وقد يشتبه هذا الأصطلاح باصطلاح « وحدة الوجود » أو باصطلاح « الحلول » فهذان اصطلاحان وافدان القائل بهما متهم في عقيدته ، ولم يقل بهما الا غلاة المتصوفة من أمثال : الحلاج وابن عربي وابن سبعين . والاتصال عند معتدلة الصوفية هو : القرب من الله ، والتعبير بالقرب أحسن من التعبير بالاتصال كما قال ابن القيم ، لأن هذه اللفظة قد تشتبه بغيرها فيفهم منها غير ما أريدت له يقول ابن القيم : « وأمّا التعبير بالوصل والاتصال : فعبارة غير سديدة ، يتشبث بها الزنديق

---

(2) المرجع السابق 55/1 .

(3) المرجع السابق 56/1 .

(4) الكلا باذي : التعّرف لمذهب أهل التصوف ص 129الطبعة الأولى ، مكتبة الكليات الازهرية 1969 .

(5) المرجع السابق والصفحة السابقة .

(6) المرجع السابق ص 130 .

(8) ابن القيم : مدارج السالكين 150/3 بتحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي بيروت 1972 .

الملحد ، والصديق الموحّد ، فالموحِّد يريد بالاتصال : القرب ، وبالانفصال والانقطاع : البعد ، والملحد يريد به : الحلول تارة ، والاتحاد تارة »[9] .

والاتصال عند الهروى مراتب ثلاث : اتصال الاعتصام ، واتصال الشهود ، واتصال الوجود . فاتصال الاعتصام : « تصحيح القصد ، ثم تصفية الإرادة ، ثم تحقيق الحال » ، واتصال الشهود : « الخلاص من الاعتلال ، والغنى عن الاستدلال . وسقوط شتات الأسرار » ، واتصال الوجود : « لا يدرك منه نعت ولا مقدار ، إلا اسم معار ، ولمح إليه مشار »[10] .

والهروى لا يريد باتصال الوجود أن وجود العبد يتصل بوجود الرب ، وقد بين ذلك بجلاء ابن القيم في ( مدارج السالكين ) فقال : « وإنما يريد الشيخ باتصال الوجود : أن العبد يجد ربه بعد أن كان فاقداً له . فهو بمنزلة من كان يطلب كنزاً ولا وصول له إليه ، فظفر به بعد ذلك ووجده واستغنى به غاية الغنى . . »[11] .

هذا بعض ما وقفت عليه من معاني كلمة ( اتصال ) عند المتفلسفة والمتصوفة ، ولم يبق لنا الاّ معنى ثالث شائعٌ في الحياة العملية ، وهو الاتصال بمعنى التخاطب والتفاهم .

**الاتصال بمعنى التخاطب والتفاهم ونقل الأخبار :**

ورد في الموسوعة البريطانية في تعريف الاتصال ( Communication) ما يلي : « كان الاتصالُ من حيث هو تبادل للمعاني بين الأفراد خلال نظام مشترك من الرموز مثارَ اهتمام عدد كبير من العلماء منذ عهود اليونان الأولى . وحتى يومنا هذا يندرج هذا الموضوع وبشكل عادي تحت أنظمة أخرى على افتراض انه عملية طبيعية ملازمة لكل شخص . وفي سنة ١٩٢٨ قدّم الكاتب والناقد الأدبي الإنكليزي I.A.Richards تعريفاً لا يزال يعد من أشهر التعريفات لكلمة ( اتصال ) من حيث كونه مظهراً متميزاً لعمل إنساني . يقول ريتشاردز : « ينشأ الاتصال عندما يؤثر عقلٌ ما في محيطه ، فيتأثر به عقل آخر في المحيط نفسه ، فتنشأ في

---

(9) المرجع السابق 79/3.

(10) المرجع السابق 323/3 .

(11) المرجع السابق 324/3 .

العقل الثاني تجربة مماثلة للتجربة التي حدثت للعقل الأول ، فيندفع جزئياً بتلك التجربة »[12] .

نقل الإنسان في عصور ما قبل التاريخ المعلومات إلى أصحابه في صورة أو أخرى ، فكان الإنسان البدائي يصدر أصواتاً حيوانية تشبه إلى حدّ كبير الحيوان ، هذا لو صح أن الإنسان الأول مرّ بمرحلة بدائية متخلّفة لم يتميّز فيها عن الدّواب على رأي علماء الانتروبولوجيا الطبيعية والحضارية (Cultural and Physical Anthropology) .

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة الكلام والغناء والإشارات اليدوية ، والكتابات الأولية على الخشب والحجر والتصوير على جدران الكهوف .

ولعل إضرام النار كان أقدم وسيلةٍ للاتصال تتجاوز مدى صوت الإنسان . وفي سنة 550 قبل الميلاد بنى الامبراطور الفارسي Cyrus عدداً من الأبراج لتنتشر حول عاصمة ملكه ، وجعل في كل برج جندياً يقوم بنقل الرسائل باستخدام صوته إلى من في البرج الذي يليه ، وهكذا حتى تنتقل الرسائل خلال الأبراج جميعها لمن في اطراف العاصمة . ومن الأساطير التي تروى عن الاسكندر الأكبر أنه اتّخذ مضخماً للصوت يشبه البوق يصل بواسطته صوت الجندي إلى مسافة تبلغ اثني عشر ميلاً . وفي سنة 1670م قام رجل انكليزي وهو السير صمويل مورلاند بتصميم انبوب مماثل للذي صنعه الاسكندر وبعث بواسطته رسالة صوتية إلى الملك تشارلز الثاني الذي يبعد عنه مسافة ميل ونصف . كما استعملت الطبول أيضاً وسيلة للاتصال وإبلاغ الرسائل . وهي وسيلة لا تزال مستخدمة حتى يومنا هذا في قبائل افريقية ، وبالخصوص قبيلة اشانتي Ashanti في غانا التي تستعمل اسلوب الاتصال الذي قام بتطويره أسلافهم منذ زمن طويل قبل ميلاد المسيح حيث يقوم مواطن من القبيلة بقرع الطبل وفق ايقاع محدد Tattoo مستخدماً في ذلك طبلين أحدهما عالي التردد والآخر منخفض[13] .

ولعلّ اعظمَ وسيلتي اتصال كانتا صناعة الورق واختراع الطباعة ، حيث

---

(12) Encyclopedia Britannica, V.4, P. 1005 , 15th edition

(13) New age Encycl. V.5, P.88, Lexicon Publications, 1980

اكتشف الصيني تسي لن حوالي سنة 105 بعد الميلاد الورق ، واخترع جوتنبرغ المطبعة سنة 1450 .

ويرجع تسليم الرسائل باليد إلى الحضارات الأولى ، إذ نقلت الرسائل بواسطة عدّائين سريعين حيث تنقش الرسالة على الجلد أو الرّق أو تحفر على قطع من الخشب أو البرونز ، وقد كتب هيرودوت المؤرخ الأغريقي الشهير عن هؤلاء السعاة العدائين Fleet — footed runners or Message couriers : « لا الثلج ولا المطر ولا القيظ ولا حلكة الليل الدامس تمنع هؤلاء الرجال من تجوالهم » وفي سنة 1653 م تسلم الكونت دي ڤيللاييه Count de Villayer الفرنسي الإذن بالشروع في إنشاء البريد وذلك بجعل أحد عشر صندوقاً بريدياً في مدينة باريس إلّا أنّ غارات الوندال Vandals قضت على هذه المحاولة . وحاول الانكليز في سنة 1657 الشيء نفسه ففتحوا مكاتب للبريد بلغ عددها اربعمائة في لندن وضواحيها ، وكان القيام بتسلّم وتسليم البريد لعدّة مرات في اليوم تصل إلى اثنتي عشرة مرة يومياً ، ومرة أخرى أفسد الوندال وقطاع الطرق هذا النظام البريدي .

وفي سنة 1840 تقريباً بدأ النظام البريدي الحديث في استعمال الطوابع والوزن .

واستعمل في امريكا نظام آخر لنقل البريد تستخدم فيه الخيول عرف بـ The pony express تقوم بالإشراف عليه مؤسسات خاصة ، واستغرق البريد في أسرع أحواله سبعة أيام وسبع عشرة ساعة وذلك لنقل الخطاب الذي ألقاه الرئيس لينكولن في حفل تنصيبه رئيساً .

وقام الفرنسي كلود شابي Claude Chappe بتطوير واحدٍ من أكثر أنظمة التلغراف إتقاناً ، وفي سنة 1793 بنيت سلسلة من محطات التلغراف بين باريس وليل[14] .

ولعل أعظم حدث في عالم الاتصالات كان اختراع الهاتف سنة 1876 م من قبل العالم جراهام بل . ومما لا يختلف فيه إثنان أن الاتصال الجماعي أو الجماهيري Mass Communication هو أخطر أنواع الاتصال المعروفة وذلك لاتساع رقعة

---

(14) Ibid. P.90 .

انتشار الأخبار بواسطته ، ولأهميته عُرِفَ القرنُ العشرون بأنه عصر الاتصال الجماهيري[15] .

ويعرّف الاتصال الجماهيري بأنه عملية نقل الخبر بواسطة جماهيرية كالصحف والمجلّات والمذياع والرائي وغيرها[16] .

ومنذ مطلع هذا القرن انصبّ الاهتمام على تحسين طرق الاتصال ، حتى أنه في سنة 1946م اقترح الانكليزي ارثر كلارك فكرة استحداث نظام للاتصال يربط انحاء الكرة الأرضية ببعضها Global Communication System ، حيث يتكون هذا النظام من ثلاثة اقمار اتصال يوضع على ارتفاع متزامن من الأرض Synchro-nous altitude .

وفي سنة 1955 م قام جون بيرس من مختبرات بِلْ للهواتف بتحليل طريقتين للاتصال خلال الأقمار الاصطناعية كان من نتيجتها إرسال أقمار اصطناعية هامدة خالية من الأجهزة Passive Communication Satellites حيث يركب على القمر سطوح معدنية تقوم بعكس الإشارات المرسلة إليه . ومن الأقمار الاصطناعية الفعالة المستخدمة في الاتصالات ما يعرف بـ Telestar و Relayو Syncomحيث تحتوي هذه الأقمار على اجهزة موجات دقيقة Microwaves وقد استخدم Telestar 1 في العاشر من يوليه سنة 1962م ليبعث أولَ إرسال مرئي بين الولايات المتحدة وأوروبا[17] .

**العرب وطرق الاتصال :**

عرف العرب طرق الاتصال البدائية شأنهم في ذلك شأن الشعوب الأخرى ، واستمر استعمالهم لبعض تلك الوسائل البدائية حتى بعد ظهور الأسلام ، إذ حفظ لنا التاريخ مرويات تتعلق بذلك ، فروى أن النار كانت توقد في ساحل سبتة للنذير بالعدو فيصل ايقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة وذلك في زمن الأغالبة[18] .

وقد ورد ذكر البريد في الشعر الجاهلي ، حيث اتخذ ملوكُ العرب في الجاهلية

---

(15) راجع مجلة ( عالم الفكر ) . مج 11 عدد 2، 1980العدد المخصص للاتصال .

(16) Ibid P.91.

(17) Ency. Americana V.7, P.432, 1979

(18) ابن خلدون : العبر 203/4 طبعة بيروت المصوّرة 1979م .

الخيل للبريد[1] يقول امرؤ القيس :

على كلّ مقصوص الذنابي معاوِدٍ  بريدَ السُرى بالليل من خيلِ بربرا[20]

يقول آدم متز : « ويظهر أن البريد اخترع في وقت معين ، إذ نلاحظ أن دَواب البريد عند الروم والمسلمين والصينيين جميعاً كانت علاقتها تحذيف أذنابها »[21] .

والبريد في اللغة كما جاء في تهذيب اللغة للأزهري : « الرسول »[22] ، وتبلغ كلُّ سكة من سكك البريد : اثني عشر ميلاً .

وقد ذكر أبو هلال العسكري أن معاوية بن أبي سفيان كان أولَ من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية[23] ، ثم أدخل عبد الملك بن مروان عدة تحسينات على نظام البريد ، واصبح بذلك ادارة هامة في إدارة شؤون الدولة[24] . وكان البريد مخصصاً لأعمال الحكومة[25] ؛ وكان أشبه بالعين للخليفة على أعوانه وولاته . وصاحب ديوان الانشاء هو المتولي لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار[26] . وكان للبريد ألواح من فضة ينقش في وجه كل لوح منها كلمة التوحيد والمكان الذي ضرب فيه اللوح وينقش في الوجه الثاني اسم السلطان الذي ضرب اللوح في زمنه[27] ، ويجعل اللوح في عنق البريدي فيذعن له بذلك أرباب المراكز بتسليم خيل البريد ولا يزال كذلك حتى يذهب ويعود فيعيد ذلك اللوح إلى ديوان الانشاء[28] . وقد جعلت للبريد مراكز متفاوتة الأبعاد حسب

---

(19) المبرد : الكامل 286/1مكتبة المعارف ـ بيروت 1386هـ .

(20) انظر تهذيب اللغة للأزهري ( كتاب حرف الدال ) مادة ( برد ) . 105/14 .
وقد ورد ذكر كلمة ( البريد ) في شعر العرب ، انظر قول المثقّب العبدي في المفضليات ص 150) دار المعارف ط (3) ، وقول مالك بن نويرة في الأصمعيات ص 192ط (5) .

(21) متز ، آدم : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 410/2 ترجمة د. محمد ابو ريدة ص 4، بيروت .

(22) انظر تهذيب اللغة 105/4 .

(23) العسكري ، ابو هلال : الأوائل 344/1تحقيق محمد المصري منشورات وزارة الثقافة دمشق 1975

(24) القلقشندي : صبح الأعشى 367/14 .

(25) انظر آدم متز ، المرجع السابق 419/2 .

(26) المرجع السابق 371/14 .

(27) المرجع السابق 371/14 .

(28) نفس المرجع والصفحة .

الضرورة ، ففي الديار المصرية جعلت قلعة الجبل مركزاً رئيسياً للبريد يتفرع عنه أربعة مراكز لأربع جهات مختلفة وفي دمشق مركز بريدي تتفرع عنه مراكز موصّلة إلى حمص وحماهَ وحَلَب وطرابلس وبيروت وصيدا . وقد أسهب القلقشندي في ذكر هذه المراكز[29] .

وفي عهد البويهيين بلغ نظام البريد مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة حتى كانت بواكير الفواكه تصل إلى قصور السلاطين طرّية سليمة ، وادخل المعز الفاطمي نظام السعاة وكان يقال لهم الفيوج[30] . وكان الحمام الزاجل من أسرع سبل الاتصال التي اعتنى بها العرب منذ القديم ، وهي طريقة كانت معروفة منذ أيام الرومان ، وقد اهتمّ القرامطة بهذه الوسيلة اهتماماً ظاهراً حتى تنتقل لهم الأخبار من جميع أنحاء البلاد في اسرع وقت[31] . وكان خلفاءُ بني العباس مُولَعين بالحمام غاية الولع، وعلى رأسهم المهدي . وجعلت للحمام الزاجل أثمان باهظة تقدر بحجمه وسرعة طيرانه . ونظّمت له مهابط تشبه المطارات وهي عبارة عن مجموعة أبراج كمراكز البريد[32] .

ومن سبل الاتصال أيضاً إقامة ( المَنَاوِر ) ، وهي مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار[33] . وتكون هذه المناور على رؤوس الجبال لتنذر الأهالي بما يحدق بهم من خطر ويضرم كلُّ منّور لنقل الإشارة للذي يليه وهكذا حتى ينتشر الخبر في الأماكن القصيّة .

وهكذا ترى أن العرب والمسلمين قد شاركوا غيرهم من الشعوب في تطوير سبل الأتصال التي كانت سائدة أيامهم ، وهي مشاركة متواضعة قد لا تذكر إذا قيست بما وصلت إليه سبل الاتصال اليوم ، ولكن حسب المسلمين فخراً أنهم نظموا البريد وجعلوا له سككاً ومراكز ، هذا الأسلوب الذي لم يصل إليه الأمريكيون حتى منتصف القرن التاسع عشر كما قرأنا قبل قليل .

---

(29) المرجع السابق 14/372-383 .

(30) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي 3/274مكتبة النهضة 1965، ط 7 .

(31) آدم متز : المرجع السابق 422 .

(32) القلقشندي : المرجع السابق 14/389-392 .

(33) القلقشندي : المرجع السابق 14/398 .